



لكي يكون تقارب وانفراج، حوار وتطبيع، بين دول الخليج وإيران، لا بد للجانب العربي من أن يعرف أولاً مع أي إيران يتعامل.

فإيران «الجديدة» لم تتضح معالمها بعد، أما التي اختبرت طوال الخمسة والثلاثين عاماً الماضية فتثير الشكوك والمخاوف بهياجها المنهجي، المنفلت أحياناً كثيرة، خصوصاً في ممارسات ميليشياتها في لبنان والعراق.

إيران - «تصدير الثورة» بالغت بإثارة النعرات المذهبية في خطابها، وبالعدوانية والاستكبار في سلوكها، إلى حد أنها استقرت في اذهان العرب كـ«اسرائيل ثانية» تدعى العداء للأولى وتريد محوها من الخريطة، لكنها تؤدي الوظيفة والدور نفسيهما، بل تقوم بما هو أخطر اذ تحقق أحلام اسرائيل بتقسيم العالم العربي وتفكيكه دوياً وآفاليم مذهبية.

المؤكد أن التقارب والتعاون والتطبيع مطلوبة، والأكيد أن المنطقة العربية مقبلة عليها.

ذاك أن إيران - على رغم كل الأضرار التي أحدثتها، وعلى رغم أن العرب لم يكونوا في أحلق أيام هزائمهم أمام اسرائيل على هذا الانكشاف الاستراتيجي كما هم اليوم بفعل الاختراقات الإيرانية - بادرت إلى إظهار شيء من الاختلاف عن اسرائيل.

ففيما تواصل الأخيرة تصعيد المتطرفين إلى حكوماتها، أنتخب إيران رئيساً وضع، قبل انتخابه وبعده، الرغبة في إصلاح العلاقات مع الجوار الخليجي بين أولوياته.

ثم أخذ وزير خارجيتها على عاتقه تطبيق سياسة انفتاحية، وإذا بدا استعجاله من قبيل حسن النية، فإنه مضطر للاعتراف بأن الواقع أكثر تلبيداً مما يعتقده وأكثر تعقيداً من الحفافة الطبيعية التي يستقبل بها في هذه العاصمة أو تلك.

فلا أحد يصدق أن النيات الحسنة بضاعة إيرانية، أو أن المسألة تتعلق فقط بإظهار استعداد طيب لمستقبل أفضل بين العرب والفرس، بل بالحد من الجمود والاستهتار اللذين أوديا بعلاقات مكونات المجتمعات العربية إلى مهالك كارثية، بل يدفع بسوريا إلى الانهيار والتفكك.

هذا لا يعني أبداً أن العرب يضعون شروطاً تعجيزية، على الإيرانيين تلبيتها كي يتأهلو للتطبيع معهم، ونقول «التطبيع» استدعاءً لمصطلحات لم تُستخدم إلا مع الاسرائيليين.

فسياسات الإيرانيين ذهبت أبعد بكثير مما استطاع الاسرائيليون إفساده، وباتت تستوجب «تطبيعاً» بين عراقيين وعراقيين وبين لبنانيين ولبنانيين وبين فلسطينيين وفلسطينيين، ولا ننسى السوريين طبعاً...

وفي غمرة الاحتفالات المبكرة بـ«الانتصار» في تحصيل الاتفاق النووي مع الدول الكبرى، تنسى طهران أن هذا «الانتصار» لم يكلّف الدول الكبرى بمقدار ما كلف الشعب الإيراني ومعه شعوب عربية أثماناً دفعتها من أنها واستقرارها وتعايشها. ولذلك، فإن اتفاق وقف «برنامج صنع القنبلة النووية» هو أولاً لمصلحة هذه الشعوب.

بالنسبة إلى الحكومات العربية، ليست المشكلة في هذا الاتفاق، بل في اعتقاد إيران أن الاعتراف بحقّها المشروع في تخصيب اليورانيوم يعني أيضاً اعترافاً بـ«حقّها» في «تخصيب النفوذ» حيثما زرعته واستثمرت فيه.

ولأن العرب والفرس ليسوا في حال حرب مفتوحة ومعلنة إلا من جانب واحد هو الفارسي فحسب، فمن الواجب والضروري سعياً إلى الشفافية أن تجيب إيران عن تساؤلات تطرح نفسها تلقائياً: ما الذي تبغيه من هذا «النفوذ»؟

وهل هي مدركة للأضرار التي تسببت بها من جراء سياساتها؟ وإذا كانت تتمّ يدها الآن لتقاربٍ، مرحّبٍ به في أي حال، فهل تعني أنها في صدد طلاق بائن مع الممارسات التي دأبت عليها منذ «الثورة»؟

أم أنها ت يريد التقارب لإضفاء مشروعية على وقائع «النفوذ» مع الإبقاء عليها بأمراضها واعتمالاتها؟ وأخيراً، هل أصبحت استراتيجيةها أن تكون دولةً «طبيعية» مساهمةً في الاستقرار الإقليمي؟ ثمة إشكالات وغواصن لا بدّ من جلائها، ومنها تحديداً أن دول الخليج بكل مستوياتها لم تعدّ مستعدّة لقبول فكرة «إيران شرطي الخليج» حتى ولو بتكليف أميركي.

لا بدّ للتقارب بين الخليجين والإيرانيين من حوار بين جيران وأنداد على قاعدة الاحترام المتبادل والاعتراف المتبادل بالمصالح وضرورات التعاون.

ومن البديهي أن مرحلة بناء الثقة تتطلّب مصارحة حول وقائع سابقة وتطورات مستقبلية لعلّ أهمها:

1) تجاوز الأحقاد التي خلفتها الحرب العراقية - الإيرانية وما سبّقها وتخلّها وتلاها من تورّط وردود فعل أقدم عليها الجانبان، وكان مبعثها الأساس أن «الجمهورية الإسلامية» لم تنشأ بناءً على ثقة مع الجوار ولم تأخذ في الاعتبار تركيبة حقبة الشاه واحتقاناتها في المنطقة.

2) منذ انتهاء تلك الحرب وبعدها حرب تحرير الكويت، قبل نحو ربع قرن، لم تكن هناك مشاريع عدوانية عربية - خليجية ضد إيران، التي دخلت على العكس مرحلة احتراق المجتمعات العربية، لذلك حان الوقت كي توضح إذا كانت مقبلة على العمل كدولة تحترم القوانين الدولية أم تريد الاستمرار في أيديولوجية «تصدير الثورة» التي تلقن أتباعها «ثقافة الغزوات» بكل حمولاتها الدموية والمذهبية.

3) ضرورة «تنظيف» مفاهيم العمل التي سادت خلال العقود الثلاثة الماضية، وأبرزها نهجاً «التشييع» و«التسليف» اللذان يتواجحان اليوم كما في أسوأ الحروب الغابرة.

4) اعتبار حقوق الشيعة شأنًا داخلياً في أي دولة، وعليها أن تقوم فيه بواجباتها كاملةً ووفقاً لمعايير المواطنة وحقوق الإنسان، أما اعتباره شأنًا يبرر لإيران التدخل وتشكيل الميليشيات هنا وهناك، فهذا يفتح أيضاً ملفات لا تقتصر على السنة وحدهم في إيران نفسها.

5) اعتبار الإقليم بيئة تعايش سلمي يحقق مصالح الجميع بعيداً من نوازع الهيمنة والشحن المذهبي والتدخل في الشؤون الداخلية للآخرين، والأهم أن تتمكن إيران من التخلّي عن أجنداتها الخفية.

انطلاقاً من ذلك، لا بد من أن يشمل تطبيع العلاقات الخليجية - الإيرانية بتّ ملفات كثيرة زرعت فيها إيران أحقاداً وانقسامات تستلزم عقوداً لتجاوزها.

لكنها تعتقد أنها حققت «إنجازات» وترى استخدامها في المساومات على «نفوذها»، ومنها:

1 - وأولها مشاركتها المباشرة في تدمير سوريا، وكأنها تقصّدت تدمير رمز العروبة والاسلام الوطني الحضاري من أجل نظام بائس لا يمكنه البقاء عندما اكتشفت حقيقته الفئوية، أو دفعاً لـ «مؤامرة» على «نهج المقاومة والممانعة» وكان هذا النهج تحصّن بمشاركة ايران وأتباعها في قتل الشعب السوري.

2 - إنهاء الوضع الشاذ الذي أدى إلى تقسيم شعب فلسطين وما تبقى له من أرضها، فقط لأن «معسكر الممانعة» أراد أن يثبت وجوده ولو بالغى بهذه القضية العربية والمقامرة بها على موائد «النفوذ الايراني».

3 - التدخل الايراني في لبنان أحقّ أكبر الأضرار بصيغة التعايش وبمكانة الدولة، والإيرانيون متهمون بالمشاركة عبر «حزب الله» في الاغتيالات السياسية وفي ادامة نظام «الوصاية السورية»، ما ألهب الانقسامات في هذا البلد.

4 - إحقاق الحق في العراق وترك العراقيين يتوصّلون إلى التعايش والتّوافق، وعدم السعي إلى إخضاع العرب من سنة وشيعة لهيمنة الفرس وإلّهاب المترّسّين.

فأن يكون لإيران نفوذ، هل يعني أن تستنسخ ديكاتوراً دمية تحرّك خيوطها وتمنع العراقيين من الخطو نحو حياة طبيعية؟

5 - رفع اليد عن المعارضة الشيعية في البحرين لتتمكن من إصال الحوار الوطني إلى خواتيمه السلمية والاصلاحات التي تتبيّع لها الانخراط أكثر في تعزيز المواطنة، بدل حقنها بأوهام «تغيير النظام» أو «أرينته».

6 - جلاء ملف التدخل في اليمن، فهل «النفوذ» الايراني هناك لنصرة الحوثيين المارقين أم الجنوبيين الانفصاليين أم فقط للضغط من أجل بعثرة اليمن وتحوّيله أشلاء دويّلات؟

7 - حسم النزاع على الجزر الإماراتية المحتلة، خصوصاً أن الإمارات حددت خيارات منصفين: إما حل بالتفاوض الثنائي وإما الاحتكام إلى المحكمة الدولية.

8 - التّوافق على عدم العبث بورقة الإرهاب وتنظيم «القاعدة»، وبالتالي أن تكفّ إيران (والنظام السوري) عن استخدام المجموعات الإرهابية بغية «أفغنة» سورية أو «صوملتها»، ومن ثم تهديد دول الخليج بها من خلال اليمن وغيره. ولعل خلايا التجسس الإيرانية في دول الخليج تأتي أيضاً في هذا السياق.

قد تقرأ إيران اتجاه علاقاتها مع الولايات المتحدة نحو الانفراج بأنه يمنحها ضوءاً أخضر لمتابعة السياسات نفسها كما مارستها خلال الفترة الماضية، لكنها ترى تغطيتها بانفراجات شكلية و موضوعية مع الخليجيين وعرب الشرق الأوسط.

هذه هي الوصفة التي ستجعل العلاقات في صيغة صراعية دائمة. فالتقارب الحقيقى ينتظر مبادرات إيرانية، ولكن تكون ذات معنى وصدقية، فالآخرى بها أن تبدأ من سورية. أما الإصرار على إقامة «الهلال الشيعي» فيعني عدم التخلي عن أحلام الهيمنة وأحلامها، وهذا لن يكون في مصلحة إيران ولا في مصلحة جيرانها.

الحياة

المصادر: